# البعد السياسي للطريقة السنوسية

**بوزبوجة سميرة**

**أ.مشاركة في كلية العلوم الانسانية والحضارة الإسلامية**

**جامعة وهران**

أطلق لفظ الصوفي والمتصوف بادئ الأمر مرادفا للزاهد والعابد والفقير، ولم يكن لهذه الألفاظ معنى يزيد على شدة العناية بأمر الدين ومراعاة أحكام الشريعة [1] بل هناك عوامل قوية في الإسلام نفسه وانتشار الشعور باعتزال العالم والهروب من الدنيا وضجيجها وويلاتها، إذن بهذا يتطور الزهد إلى تصوف فيصبح حركة ذات مبادئ وقواعد، لكن بتباين المذاهب الصوفية وكثرتها تحول التصوف إلى حركة جماهيرية [2] عرفت عند المتصوفة بالطرقية [3] هذه الطرق تمكنت في ظرف قصير من التحكم في توجهات السكان الروحية، ومواقفهم السياسية[4]

تعتبر الطريقة السنوسية من أهم الطرق التي ظهرت كحركة إصلاحية في العالم الإسلامي عامة، وبرقة بليبيا خاصة، تأسست الطريقة سنة 1844م فارتبطت هذه الدعوة بليبيا وكانت سببا في جمع شمل قبائل الصحراء الليبية، كما كان لها التأثير الكبير في يقظة العالم الإسلامي في مواجهة الاستعمار الأوروبي في بلاد المغرب، وجنوب الصحراء، ويتمثل البعد السياسي للطريقة السنوسية من خلال علاقة الشيخ السنوسي مع الدولة العثمانية وتعامله مع الاستعمار المسيحي الفرنسي والإيطالي.

**1)– موقف الطريقة السنوسية من الدولة العثمانية:**

لقد كان الشيخ السنوسي حكيما في تعامله مع الدولة العثمانية، حيث يوضح في كتابه **الدرر السنية** بقوله "أنه لا بد أن تكون الخلافة بيد قرشي"[5]، ويفسر هذا الموقف رأي الشيخ في دولة الخلافة وعدم شرعية المتسلطين على حكم الرعية، إلا أنه لم تكن لديه دوافع لمعاداة السلطان العثماني، أو فتح باب النزاع الذي يعود بضرر على السنوسية، وعلى المسلمين أجمع، فلم يكن يريد الظفر بلقب الخليفة أو الدخول في مواجهة الإدارة العثمانية في المناطق التي حل بها، بل أنه كان يرى ضرورة المحافظة على الاستقرار في مركز الخلافة، في وقت زاد الضغط المسيحي في التنافس على الدولة العثمانية، وقد استفاد من موقف الحياد تجاه الدولة العثمانية عندما برز كمفكر في ليبيا وأسس طريقته وبث الزوايا، وأمنها، وأمن الطرق للقوافل التجارية في مسالكها من ساحل ليبيا إلى السودان[6][7]، رأت الدولة العثمانية بسبب ضعفها وبعد ليبيا عن مركز الخلافة، أن تعترف للشيخ السنوسي بالإمارة على تلك البقاع.

فكان اعترافها عن طريق ولاتها في طرابلس الغرب بالإمارة السنوسية على برقة، وبالتالي خفت ريبة الولاة العثمانيين في طرابلس، بعدما تبين لهم أن هدف الحركة السنوسية هو العمل على الإصلاح الاجتماعي في ليبيا، واستقرار الأمن الداخلي والتوجيه الروحي السليم[8]، وبذلك وجد الحكم العثماني في برقة هدوءا داخليا في الزاوية الأم في البيضا أو في زاوية الجغبوب.

ومما يدل على حسن صلة الطريقة السنوسية والخلافة العثمانية ممثلة في الإدارة المحلية في طرابلس الغرب، أن "السلطان عبد المجيد" منح عهدا سنة 1356هـ يعفي جميع الزوايا وأملاك السنوسية من دفع الضرائب [9]، كما أورد شكري مقاطع من الرسائل المتبادلة بين الشيخ السنوسي والولاة ومنه يمكن تصور طبيعة هذه العلاقة، فقد جاء في رسالة بعث بها الشيخ "محمد أمين باشا"[10] والي طرابلس بعد تأسيس الزاوية الأم في البيضا بمنطقة برقة سنة 1843م جاء فيها: "ثم أننا نحن وعصابة المهاجرين بحمد الله في عافية وما ذكرتم من كونكم إلى لقائنا بالأشواق وأخذكم من عهود الود بأشد وثاق، فهذا محقق لدينا وواجب المكافأة علينا



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

ويؤكده دوام اعتنائكم بنا وبأصحابنا وملاحظتكم لنا وشفقتكم علينا وتوصيتكم أتباعنا... فإن هذه الزاوية وإن نسب إنشاؤها قبلكم فإن تمام أمرها واستمرار انتظامها بشمول نظركم فأنتم لذلك منا بمرأى ومسمع ومذكورون مع الحاضرين في كل مجمع والإخوان دائما لكم داعمون...[11]، نلمس في هذه الرسالة ودا قويا بين الشيخ السنوسي، والوالي، ونستنتج منه رضا الوالي وتأييده للحركة السنوسية، التي استطاعت أن تقيم علاقات متينة مع الولاة العثمانيين، ويبدوا أن الحكومة العثمانية قررت أن تكسب ابن السنوسي لصفها، خصوصا بعد أن قدم للقبائل خدمات كبيرة في مجال الدعوة والتعليم والإرشاد، وعالج تمرد القبائل عن الدولة، التي كانت تقبل نصائح ابن السنوسي، ويطيعون الدولة العثمانية بناءا على توجيهاته، لذلك تركت الدولة العثمانية الدواخل في يد الحركة السنوسية، وقام ابن السنوسي بإرسال مندوبا عن الحركة إلى اسطنبول، وقام بهذه المهمة –"الشيخ عبد الرحيم المحبوب"– شيخ زاوية بنغازي– حيث قابل السلطان "عبد المجيد"، وحصل منه على (فرمان)[12] عام 1856م، يعفي أملاك الزوايا السنوسية من الضرائب ويسمح لها بجبي نقود من أتباعها[13]، ونخرج من ذلك كله أن علاقة ابن السنوسي وبالتالي الحركة بالدولة العثمانية، كانت طيبة وحسنة طول إقامته الأولى في برقة، حيث استطاع أن يصل إلى أهدافه، وأن يوسع نفوذ دعوته، ويكسب معاضدة الدولة العثمانية سواء عن طريق بشواتها في ليبيا، أو السلاطين العثمانيين في أسطمبول.

ونظر السنوسي إلى دولة الخلافة كواقع موجود لا تسمح الظروف بتغيره بل الصواب العمل على الحفاظ عليه وعدم الاصطدام به، كما أن الحكام العثمانيين اقتنعوا أن ابن السنوسي لم يكن يطمع في الخلافة[14]، بل ركز على جوانب الإصلاح وقد اختار طريق التعليم والإرشاد طريقا لإصلاح المجتمع[15].

**2)– موقف الطريقة من الاستعمار الأوروبي:**

**أ)– الاستعمار الفرنسي:**

لقد كان موقف الشيخ السنوسي واضحا من الاستعمار المسيحي، فقد واجهه وتصدى له بعلمه وسياسته ومخططاته، فقد ذكر المستشرقون منهم –دوفريه– في غير اعتدال ومن وجهة نظر غريبة ليقول: الطريقة السنوسية خطر عام، خطر على أوروبا وخطر على الدولة العثمانية، وخطر على شمال إفريقيا وخطر على مصر[16]، كما وصف الفرنسيون أتباع الحركة السنوسية بأنهم أشد صلابة من الحجر الصلب[17]، كما أرجع بعض مؤرخي السنوسية أن من أسباب مغادرة محمد السنوسي الحجاز هي مهمة "روش السرية" (Léon Roches)[18] الذي كان يتقن اللغة العربية، وله ثقة بين شيوخ القبائل بعد أن تظاهر باعتناقه الإسلام.

وكان روش قد اتصل بالتيجاني بمصاحبته في مهمته وحثه على إقناع رؤساء طريقته وشيوخ القبائل بذلك، واتجه روش مع حلفائه من تونس إلى القيروان وتمكن من نيل فتوى من مجلس علماء القيروان، وواصل رحلته إلى مصر لتدعيم نص الفتوى من علماء الأزهر ثم من شريف مكة، وتلقى "بيجو" نص الفتوى قبل نهاية عام 1841[19] وتنص الفتوى كالتالي: "يجب على المسلمين مهادنة الكفار الذين غزو بلادهم بالقوة، وذلك إذا لم يؤذوا هؤلاء نسائهم وأطفالهم، وسمحوا لهم بممارسة دينهم وتركوا لهم حرية إيمانهم"[20]، وعمل بيجو على توزيع هذه الفتوى على القبائل حتى شاعت أخبارها في الجزائر، وكادت تنهي جهاد الأمير عبد القادر قبل أوانه، ومهما يكن من أمر هذه الفتوى فإن تحرك ليون روش للحصول عليها، صادف مكوث محمد بن علي السنوسي في الحجاز، وقد تكون من أسباب مغادرته الحجاز بعدما لمس سكوت العلماء على هذه المهمة، وقد يكون روش تأخر في العودة إلى الجزائر ليتجسس على الشيخ السنوسي، ولتأكيد مهمة روش تنقصنا الإحالة إلى مصادر موثوقة[21].

كان محمد بن علي السنوسي ينوي العودة إلى الجزائر لكنه خشي السلطات الاستعمارية الفرنسية في الجزائر منذ سقوطها سنة 1830، ثم اتجه إلى ليبيا، وقد تكلمت جريدة (ألماتين الفرنسين) عام 1912 عن البعد السياسي عند ابن السنوسي، قالت: (لم يكن مجيء السنوسيين إلى طرابلس وتوطنهم فيها من المصادفات، فهؤلاء أدركوا منذ زمن طويل أن الأوربيين



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

سيستولون على طرابلس الغرب بعد استيلائهم على الجزائر، مراكش، فأرادوا أن يقعوا وراء ساحل طرابلس، كالبنيان المرصوص ليدافعوا عن بيضة الإسلام عندما تطلق أوروبا أساطيلها بسهولة على تلك السواحل[22].

يقول عباس محمود العقاد: "وكان الشيخ السنوسي بخلاف الغالب على مشايخ الطرق خبير بأحوال السياسة العالمية، فوقر في ذهنه أن النابلطان أي الإيطاليين مغيرون لا محالة على برقة في يوم قريب فأوغل بمقامه إلى واحة الكفرة على طريق السودان ليشرف من ثم على تعليم أهل الصحراء... ويهيئ في جوف الصحراء ملاذا لمن تقصيهم غارات المستعمرين على السواحل ومدن الحضارة"[23].

لقد اعتبر الأوروبيون الحركة السنوسية عقبة في طريق تحقيق أهدافهم الاستعمارية، حيث قال السياسي الفرنسي "ألمسيوها نوتو": "لقد أسس الشيخ السنوسي في جبهة ليست بعيدة عن الأصقاع التي تلي أملاكنا في الجزائر وطرابلس وبنغازي، مذهبا خطيرا له أتباع وأنصار متعددون، ومقر هذا الشيخ بلدة الجغبوب... إلى أن قال: هذا لم يمنع السنوسيين من مد حبل الدسائس التي أوقفت بعثاتنا عن كل عمل مفيد لفرنسا في إفريقيا الجنوبية"[24].

**ب)– الاستعمار الإيطالي:**

عمل ابن السنوسي على تربية أتباعه على الاستعداد للجهاد في سبيل الله، وكان كثيرا ما يدعوا إلى الجهاد ويأمر به ضد كل معتد على أرض المسلمين، فقد قام بتنبيه وتحذير الليبيين من غزو الطليان لليبيا، قال مرة للشيخ الكاسح –أحد زعماء قبيلة العواقر–: "ماذا أعددت يا شيخ الكاسح للنابلتان[25] إذا غزو بلادك ليأخذوها ؟ فقال له الشيخ الكاسح: لقد أعددت له جرابا من البارود وشيئا، من الرصاص: فقال له ابن السنوسي: إذا كنت وأنت شيخ القبيلة ولم يوجد عندك إلا هذا المقدار القليل فماذا يوجد عند أفراد القبيلة؟"، وأخبره ابن السنوسي أن النابلتان آت للبلاد لا محالة.."وكان ابن السنوسي يوصل ذلك إلى كل من يجالسه من الإخوان ورؤساء الزوايا وشيوخ القبائل والأعيان، ويأمرهم أن يحذروا من ذلك، ويأمر رؤساء الزوايا باقتناء جميع أنواع السلاح ما استطاعوا ويحتفظوا به في مخازن خاصة[26].

أدرك ابن السنوسي أن غزو االنابلتان لليبيا أمر مؤكد، وذلك من خلال البعثات التبشيرية، واستمرار إيطاليا –أكثر من ثلاثون سنة– من جمع المعلومات بإرسال جواسيسها، و توغل مؤسساتها التجارية ومدارسها العلمية[27]

تزامن الاحتلال الإيطالي مع فترة حكم الزعيم الثالث للحركة السنوسية أحمد الشريف حفيد الشيخ السنوسي، الذي تولى قيادة الحركة سنة 1902م، بعد وفاة عمه محمد المهدي السنوسي يوم 02 يونيو 1902م في زاوية قرو[28] [29].

وقد قاد محمد الشريف حركة الجهاد في ليبيا ضد الطليان، وهو صاحب النداء المشهور الذي حث فيه أهل طرابلس والبرقاويين، وأهل ليبيا على الجهاد ضد العدو المعتدي، ويعلن فيه بنبأ اعتزامه النزول بنفسه إلى الميدان على رأس قوة المجاهدين، وقد نقش نداء محمد الشريف على راية من حرير حملها المجاهدون في طرابلس[30] متبعا في ذلك توصيات جده السنوسي في الجهاد ضد الطليان وتعبئة المسلمين وأتباع الحركة لذلك.

زد على ذلك أن الحركة السنوسية قدمت قادة عظام تصدوا إلى الغزو الإيطالي سواء كانوا من أتباع محمد بن علي السنوسي أو أحفاده، ونذكر بعض المجاهدين الذين لعبوا دورا كبيرا في إخراج الطليان من ليبيا – نذكر– صفي الدين السنوسي[31]، محمد إدريس السنوسي[32]، المجاهد عمر المختار[33] الفضيل بوعمر[34] وغيرهم من أتباع الحركة السنوسية والذين حملوا على عاتقهم الجهاد ضد إيطاليا.

يظهر البعد السياسي عند ابن السنوسي في تعامله الحكيم مع الدولة العثمانية، حيث رأى في الدولة العثمانية دولة الخلافة.



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

كما لعبت الطريقة السنوسية دورا كبيرا في تصديها للتبشير المسيحي، في إفريقيا وجنوب الصحراء، وقادت حركة الجهاد ضد الغزو الأوروبي، فقد عبر عنه دوفريه من وجهة نظر غريبة بقوله: "إن السنوسية هي المسؤولة عن جميع أعمال المقاومة التي قامت في الجزائر ضد الفرنسيين، واليد المدبرة لجميع نكبات فرنسا في بلاد المغرب وفي السنغال، إن الحقيقة التي يجب ألا تغفل عنا، أن الطريقة السنوسية هي أخطر أعداء نفوذنا وأنها العقبة كأداء في سبيل توسعنا السياسي...".

هذه شهادة مستشرق أوروبي عن مدى مساهمة الطريقة السنوسية في ردع المسيحية وموقفها المباشر والمعادي للاستعمار المسيحي سواء الفرنسي بالجزائر أو الإيطالي بليبيا.

**الهوامش:**

**[1]– ماسنيون، مصطفى عبد الرزاق، التصوف الإسلامي، ترجمة إبراهيم خورشيد وآخرون، ط 1، دار الكتاب اللبناني، 1984، ص279.**

**[2]– عبد الله شريط، الفكر الأخلاقي عند ابن خلدون، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر، ط1، 1981، ص508.**

**[3]– عبد الرحمن بن محمد الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ديوان المطبوعات الجامعية، ط7، الجزائر، 1994، ص250.**

**[4]– عن التصوف والصوفية بالجزائر، Islamic-sufism.com، تاريخ 2009/04/12.**

**[5]– د. النمشي عجيل جاسم، الحركات الإصلاحية ودورها في يقظة العالم، مجلة الأصالة، المجلد الخامس، الجزائر، 1975، ص276 (نقلا عن الدرر السنية)**

**[6]– كانت القبائل تحمل محررات وهي بمثابة جوازات مرور من شيخ الزاوية السنوسية فلا تلمسها أيدي قطاع الطرق.**

**[7]– د. النمشي عجيل جاسم، الحركات الإصلاحية، مرجع سابق، ص277.**

**[8]– علي المحافظة، الاتجاهات الفكرية عند العرب في عصر النهضة، ط3، بيروت، لبنان، 1980، ص277.**

**[9]– نقولا زيادة، ليبيا من الاستعمار الإيطالي إلى الاستقلال ، منشورات قسم الدراسات التاريخية، جامعة الدول العربية، 1985، ص58.**

**[10]– محمد أمين باشا: حكم طرابلس الغرب من سنة 1253هـ إلى سنة 1264هـ.**

**[11]– محمد فؤاد شكري، السنوسية دين ودولة، القاهرة، مصر، 1948، ص38.**

**[12]– فرمان: أشار إلى هذا الفرمان صادق المؤيد الذي لم نعثر على صورة له.**

**[13]– أحمد الدجاني، الحركة السنوسية، د.س، ص105.**

**[14]– أحمد الدجاني، مرجع سابق، ص163.**

**[15]– المرجع نفسه، ص164.**

**[16]– نفسه، ص44.**

**[17]– محمد محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط ، تحت الطبع ضمن منشورات البيارق، د.س، ص93.**

**[18]– تعود جذور هذه المهمة إلى تعيين الجينرال بيجوا كحاكم عام على الجزائر سنة 1840، والذي خطط لنيل فتوى من كبار علماء المسلمين في تونس بقصد تحريم على مسلمي الجزائر محاربة المسيحيين، وذلك لتشتيت شملهم من حول الأمير عبد القادر.**



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

**- Léon Roches, trente deux ans à travers l'Islam, Paris, 1884, p443.[1]9**
**- Roches, Ibid, p444.[2]0**

**1[2]- يقوم باحثين سعوديين البحث عن مهمة روش في الحجاز.**

**2[2]– محمد الطيب الأشهب، السنوسي الكبير، القاهرة، مصر، 1959، ص164.**

**3[2]– عباس محمود العقاد، الإسلام في القرن العشرين حاضره ومستقبله، ط2، بيروت، لبنان، 1969، ص44.**

**4[2]– محمد الطيب الأشهب، السنوسي الكبير، مرجع سابق، ص42.**

**5[2]– النابلتان: أي الطليان**

**6[2]– محمد الطيب الأشهب، برقة العربية بين أمس واليوم، مطبعة الهواري، شارع محمد علي، مصر، ص179.**

**7[2]– خلال فترة 1882–1896م تزايدت النشاطات التبشيرية الإيطالية في ولاية طرابلس وخاصة في مجال التعليم، وأقبل بعض الضباط العثمانيين على إرسال أبنائهم إلى هذه المدارس.**

**8[2]– بعد أن اشتد عليه المرض وشعر بدون أجله، عهد إلى ابن أخيه بالقيادة لما توسم فيه من القدرة والإطلاع بأعباء الحركة.**

**9[2]– الطاهر أحمد، الطاهر أحمد، أعلام ليبيا، ط2، طرابلس، ص19.**

**0[3]– أحمد الدجاني، الحركة السنوسية، مرجع سابق، ص.ص 126–127.**

**1[3]- هو شقيق أحمد الشريف وحفيد الشيخ السنوسي من أشهر قادة الحركة السنوسية من إيطاليا، قاد معركة القرضابية التي انتصر فيها الليبيين.**

**2[3]– هو محمد إدريس بن محمد المهدي ولد سنة 1890 بالجغبوب، ت1983 بالقاهرة تولى القيادة في برقة بعد إلحاح أهلها عليه لما أصابها من بلاء (مجاعة، وباء، فساد).**

**33– هو الشيخ عمر المختار ولد ما بين 1858–1862 بالبطناء في الجبل الأخضر وترعرع في بيت عز كرم، وتشبع بتعاليم السنوسية، وهو من أعظم مجاهدي ليبيا، أعدم في 16 سبتمبر 1931.**

**34– هو أحد قادة الحركة السنوسية والساعد الأيمن لعمر المختار، استشهد في معركة كرستة**



المنارة للاستشارات
www.manaraa.com